العرب وسوء الاستخدام لعلم الجينات

عنوان مُعَبِّر للفصل الرابع عشر (11 صفحة)

من كتاب

أصل الإنسان

(2016 – رقم:19)

عمر "محمد فؤاد" أبو الرُّب

المراجع في هذا الفصل موجودة في صفحة المراجع في الكتاب الأصل
جميع الحقوق محفوظة

الفصل الرابع عشر – العرب وعلم الجينات

مع أن علم الجينات قد تم تأسيسه وتطويره بيد مجموعة من العلماء الغربيين إلّا أن هناك مجموعة من العرب قد غاصوا وتخصصوا فيه وصنفوه وجمعوا أموره، وليس من أجل المساهمة في تطويره، وإنما بهدف المفاخرة والتنقيص: فإن هناك منتديات في الإنترنت أصبحت تَستخدم علم الجينات كي تُثبت "نقاء دمهم"، ويَنفوا "نقاء الدم" عن الآخرين، ويُخرجوا العائلات والقبائل من إطار العرب.

وكما سيتم تبيانه لاحقًا في هذا الفصل فإن ما سبق هو "التعالي"، هو لعنة لأي شعب أو أمة؛ فهذا التعالي قد أخرج العرب من مسرح السياسة الدولية منذ 200 هجرية (800 ميلادية)، وأصبحوا في هذا المسرح متفرجين فقط، وهذا التعالي قد أخرج الأمة الإسلامية من مسرح السياسة الدولية منذ 1924 ميلادية، وبسبب الضغط والقهر والحرمان فقد انزوى التعالي وخف تأثيره على الأمة الإسلامية، وبدأت تظهر على الأمة الإسلامية بعض إشارات التعافي.

وهنا دعوة المؤلف ..... التَّعالي لعنة، والتعالي نقمة، فلا توقظوها.

ولكن دعونا أولًا نضع الأدلة أن علم الجينات ليس يقينيًّا في تحديد أنساب القبائل:

أولًا:

النظرة الشرعية في النسب لا تتفق بالضرورة مع النظرة الأكاديمية، ولنضرب المثال التالي:

لنفترض وجود زوجين: ديفيد وكارول، وكانت كارول لا تستطيع الإنجاب لمشاكل في الرحم، واتفقا مع زوجين آخرين (جورج وهيلين) أن يتم أخذ بويضة من كارول وتخصيبها صناعيًّا بحيوان منوي من ديفيد، ومن ثم زرع هذه البويضة المخصبة في رحم هيلين، وتقوم هلين بإنجاب الطفل مقابل أجر مالي من ديفيد وكارول لـ جورج وهيلين.

وتم الأمر وأنجبت هيلين طفلة، ولكن قلبها لم يستطع تسليمها للزوجين (ديفيد وكارول) وإنما رحلت فجأة مع زوجها (جورج) والطفلة إلى دولة إسلامية.

ولحق بهما ديفيد وكارول وأقاما دعوة عليهما في محكمة إسلامية، ونظرت هذه المحكمة في الأمر.

وهنا السؤال .... ما هو حكم الإسلام في هذا الأمر؟

لمن تعود الطفلة؟

انتبه هنا ... نحن لا نسأل عن حكم الإسلام في التخصيب الصناعي، ولا نسأل عن حكم الإسلام في تأجير الرحم، وإنما نسأل عن جزئية خاصة وهو حكم الإسلام في حالة جورج وهيلين.

الآن ... الحكم الغربي واضح تمامًا فالطفلة تعود لأبيها البيولوجي (ديفيد) وأمها البيولوجية (كارول)، وأما في الإسلام فإن الحكم مختلف تمامًا:

فضمن فِهْمِ المؤلف فإن الطفلة تعود لهيلين؛ لقول الله تعالى: "الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (المجادلة – 2).

ولهذا فإنَّ الأُمَّ شرعًا (ضمن فِهْمِ المؤلف) هي التي وَلَدَتْ.

وأباها هو جورج للنص النبوي التالي:

" كَانَ عُتْبَةُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ عَهِدَ إِلَى أَخِيهِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ، أَنَّ ابْنَ وَلِيدَةِ زَمْعَةَ مِنِّي ، فَاقْبِضْهُ ، قَالَتْ : فَلَمَّا كَانَ عَامَ الْفَتْحِ ، أَخَذَهُ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ ، وَقَالَ ابْنُ أَخِي : قَدْ عَهِدَ إِلَيَّ فِيهِ ، فَقَامَ عَبْدُ بْنُ زَمْعَةَ ، فَقَالَ : أَخِي ، وَابْنُ وَلِيدَةِ أَبِي ، وُلِدَ عَلَى فِرَاشِهِ ، فَتَسَاوَقَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ سَعْدٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، ابْنُ أَخِي كَانَ قَدْ عَهِدَ إِلَيَّ فِيهِ ، فَقَالَ عَبْدُ بْنُ زَمْعَةَ : أَخِي ، وَابْنُ وَلِيدَةِ أَبِي ، وُلِدَ عَلَى فِرَاشِهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هُوَ لَكَ يَا عَبْدُ بْنَ زَمْعَةَ ، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ " ، ثُمَّ قَالَ لِسَوْدَةَ بِنْتِ زَمْعَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : احْتَجِبِي مِنْهُ لِمَا رَأَى مِنْ شَبَهِهِ بِعُتْبَةَ ، فَمَا رَآهَا حَتَّى لَقِيَ اللَّهَ (رواه البخاري).

ولهذا فإن الأب شرعًا (ضمن فِهْمِ المؤلف) هو الذي وُلِدَ الطفل على فراشه.

وهذه هي النقطة .... النسب والأبوة والأمومة في الحكم الشرعي ليس من الضروري أن تتفق مع النظرة الأكاديمية.

ثانيًا:

التبني كان من أعراف العرب، وكان مُمْكِنًا لشخص من قبيلة أن يتم تبنيه من قبيلة أخرى ويأخذ اسمها ويصبح فيها نسبًا كاملًا، وقام الإسلام وحَجَّمَ هذا الأمر، ولكن لم يُجَرِّمُه، وهذا التحجيم تحول إلى منع إداري في الدولة الإسلامية.

كيف ذلك؟

قال الله تعالى "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (النساء – 23).

وفي هذه الآية فقد حُرَّمت حلائل الأبناء من الأصلاب، وبالتالي أُجيز حلائل الأبناء من غير الأصلاب (أي أبناء التبني)، وهذا اعتراف بالأبناء من غير الأصلاب.

وكذلك قال الله تعالى: "مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (4) ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (الأحزاب – 5)، وكان زيد وقتها اسمه: زيد بن محمد، فلما سمع زيد الآية قال: أنا زيد بن حارثة.

ولكن انتبه هنا ... الآية تقول: "ذلك أقسط"، ولم تقل "ذلك القسط"، وأقسط هو اسم تفضيل.

وكذلك قبل الإسلام تآخى عوف بن لؤي من قريش مع ثعلبة بن سعد بن ذبيان من غَطفان، وانتسب عوف إلى سعد بن ذبيان، وانتسب أولاد عوف إلى غطفان، وعندما جاء الإسلام لم يتم إلغاء هذا النسب.

ما الذي نريد قوله هنا؟

لقد طَلب الإسلام طلبًا واضحًا بِنِسْبَةِ الأبناء إلى آبائهم، ولكن هذا الطلب لم يكن فَرضًا حازمًا ولا تجريمًا، وقد اِلتزمت الدولة الإسلامية بهذا الطلب ومنعت مخالفته، وبسببه تَعَدَّلت الأعراف عند العرب؛ إذ لم يعد يتم تنسيب الأبناء إلى آباء التَّبني.

ولكنَّ هناك ظروفًا قد حدثت في المنطقة كانت أقوى من قوة الدولة، بل نستطيع القول إنها حدثت بسبب غياب الدولة: فقد حدثت مجازر ضخمة في الجزيرة العربية والعراق وبلاد الشام؛ بسبب القرامطة والمغول والصليبيين، وبسبب اقتتال العرب أنفسهم بعضهم مع بعض.

الآن ... في ظروف كهذه فليس مستغربًا وجود عدد كبير من الأطفال الذين مات أهلهم ولا يُعرف أقاربهم، وكان من الطبيعي تبنيهم من عائلات شتَّى، ولم يكن هناك تسجيل، وجاءت من الأطفال أجيال انتسبوا لآباء التبني.

الآن ... ضمن العرف العربي والذي لم يُجَرِّمُهُ الإسلام (وضمن ما يفهمه المؤلف) فهؤلاء الأطفال وأجيالهم ينتسبون شَرعًا وعُرفًا إلى آباء التبني هؤلاء.

والذي نريد قوله هنا إن الحمض النووي لا يَنفي ولا يَفرض نسبًا، حيث إن الأنساب في الإسلام لا تتفق بالضرورة مع نتائج التحليل الجيني.

انتبه هنا .... لنفترض جدلًا أنَّ شخصًا، ولنسميه "واي"، قد شك أنَّ طِفله ليس من صُلبه، وعمل للطفل فحصًا جينيًّا، وجاءت النتيجة أن الطفل هو ابن زوجته ولكن من شخص آخر، وليكن اسمه "إكْس".

الآن ... أيًّا كان تصرف "واي" مع زوجته (طلاق، تلاعن، إلخ) فإنَّ لـ "واي" خيارين فيما يتعلق بالطفل:

1- أن يرضى "واي" بالطفل وعندها فإن الطفل هو لـ "واي" شَرعًا وعُرفًا، وليس لـ "إكس" أي علاقة به.
2- أن لا يرضى "واي" بهذا الطفل، والحقيقة فإن المؤلف لا يَعلم الحكم الشرعي في هذه الحالة.

وفي كِلا الخيارين فإن الطفل لا يُنسب لـ "إكس" مهما كانت الظروف؛ إذ شَرعًا فإن "إكس" ليس أبا هذا الطفل، وضمن الأعراف الإسلامية فإن الطفل لا يُنسب إلَّا إلى أبيه.

وكل ما سبق (مشكلة "واي" مع طفله) ليست مجال بَحثنا، وإنما بَحثنا يتعلق بالأنساب القديمة عمومًا. والنظرة المطروحة في هذا الباب هو أن الهابلوجروبات والهابلوتايبات في الحمض النووي لا تُثبت نسبًا ولا تَفرض نسبًا؛ لأن النظرة الشرعية الإسلامية لمفهوم النسب لا تتفق بالضرورة مع النظرة الأكاديمية.

ثالثًا:

مع أن حدوث الطفرة العكسية والطفرة المتوازية (راجع الفصل التاسع) يكون نادرًا، إلا أنها ممكنة، وبالتالي فالتحليل الجيني لا يُقدم استنتاجات يقينية، وإنما هي غلبة ظن (أو ربما غلبة تخمين)، أي أنه من الممكن أن تحدث طفرة عكسية أو متوازية لإحدى العائلات في القبيلة، ويُظهر التحليل الجيني أنها لا تنتمي لهذه القبيلة، مع أن الحقيقة أن هذه العائلة تنحدر منها.

الآن .... لنفترض جدلًا أن الهابلوجروب العام لبني تميم هو "أ" وأننا فحصنا عائلة "ألفا" من بني تميم فوجدنا الهابلوجروب عندها هو "ب"، فعندها تكون صياغتنا في وصف هذا الأمر هو أقرب للتالي:

العائلة "ألفا" هي من بني تميم شَرعًا وعُرفًا وقانونًا، إلا أن التحليل الجيني (والذي هو تحليل غير قطعي وإنما ظني وربما تخميني) أظهر أن هذه العائلة تنتمي إلى هابلوجروب "ب".

رابعًا:

هناك نظرة عند بعض نسابي الجينات أن العرب هم فقط حاملو الهابلوجروب J1، وأن أي قبيلة ليست J1 فهي دخيلة على العرب، بل إن بعض نسابي الجينات قد تبنوا قولًا قديمًا غريبًا يقول إن قحطان هو أخو عدنان، وبالتالي فإن العرب كلهم ينحدرون (حسب ادعائهم) من إسماعيل عليه السلام، ومن لم ينحدر من إسماعيل فهو (حسب ادعائهم) ليس عربيًّا وإنما دخيل من الهند وإيران وأفريقيا (على افتراض أن هابلوجروب إسماعيل كان J1)، وهذا كله يعتمد على قول للنسابين القدامى أن العرب كلهم إما من قحطان أو عدنان فقط.

وهنا يجب التنبيه للملاحظات التالية:

4.أ: من النظرة العلمية فإن الإدعاء أن العرب الجاهليين (أي العرب قبل الإسلام) كانوا فقط من J1 هو إدعاء غير واقعي على الإطلاق؛ فمنذ حوالي 50 ألف سنة والهجرات من الهند

مستمرة إلى المناطق المحيطة، ومنذ 30 ألف سنة زادت وتيرة هذه الهجرات، وزادت أكثر وأكثر قبل حوالي 12 ألف سنة مع دفء الجو وكثرة الأمطار.

وقد قلنا سابقًا إن الجزيرة العربية لم تكن مطمعًا للهجرات المكثفة، ولكنها كانت هدفًا للهجرات المتوسطة والصغيرة؛ حيث إنها تقع في منتصف العالم القديم، فهي تقع غرب الهند وشرق أفريقيا، وللمقارنة فقد وصل الإنسان إلى شمال أوروبا قبل حوالي 40 ألف سنة، فما بالك بالجزيرة العربية؟

فالادعاء أن هناك هابلوجروب وحيد يمثل العرب قبل الإسلام (أي قبل 1500 سنة) هو اِدعاء غريب خارج عن النظرة المنطقية للأمور، فالهجرات إلى الجزيرة العربية لم تتوقف في أي وقت.

الآن ... هابلوجروب J1 قد ظهر حديثًا، وغلبة التخمين أنه ظهر في غرب آسيا (إيران، العراق، تركيا، بلاد الشام) قبل حوالي 15 ألف سنة، وانتشرت ذريته في محيط غرب آسيا، واستقر أحد أحفاده في الجزيرة العربية وانتشرت ذريته هناك.

وهنا سؤال .... J1 يمثل نسبة كبيرة جدًّا من سكان الجزيرة العربية (60% من أهل اليمن و40% من أهل الجزيرة العربية)، فلماذا لا نستطيع القول إن J1 هو أصل العرب وأن الآخرين قد جاءوا بعدهم؟

والجواب: كثرة العدد لا تعني بالضرورة الأصل؛ فليس غريبًا أن تجد أخوة قبل 200 سنة، وذرية أحدهم أضعاف أضعاف ذرية إخوانه، فكثرة العدد للهابلوجروب قد تكون أنهم كانوا الأصل في المنطقة، وقد تكون بسبب الحروب، وقد تكون بسبب الصدفة، فمثلًا: أن يَصْدف أحدهم (وليكن اسمه زيدًا) أنه كان مَيسورًا مِزواجًا، فنشأت له ذرية كبيرة، وصدف أن أحد أحفاده كان كذلك، والنتيجة هي كثرة ذرية زيد مقارنة بالعائلات الأخرى.

النقطة الرئيسية هنا أن الهجرات إلى الجزيرة العربية قد كانت مستمرة قبل أن يولد J1، وجاءت ذرية J1 إلى الجزيرة العربية لاحقًا، فأن نقول إن العرب كلهم من J1 وغيرهم هم دخلاء هو ادعاء بلا دليل، كما أنه مخالف للنظرة المنطقية للأمور.

4.ب – قحطان وعدنان:

النسابون القدماء كانوا يقولون إن العرب ثلاثة أجناس: عرب بائدة (كقوم هود وثمود وصالح)، وعرب عاربة (وهم بنو قحطان)، وعرب مستعربة (وهم بنو إسماعيل).

وهنا السؤال الأساسي ..... من أين عرف هؤلاء النسابون هذه المعلومات؟

ومن المؤسف أن علم "الجرح والتعديل" لم يتم استخدامه إلا في علم الحديث، فقد انتشرت أحاديث كذب عن الرسول عليه السلام منذ منتصف عهد بني أمية، وأصبح كل من يريد شهرة أو إثباتًا لفكرة يقوم باختراع حديث وينسبه للرسول عليه السلام، وهنا بدأ الاهتمام بعلم الجرح والتعديل، وهو العلم المتعلق بأهلية الرواة إن كانت شهادتهم مجروحة أو مقبولة في نقل الحديث.

ولكن هذا العلم لم يتم تطبيقه على الأخبار المتعلقة بالأنساب القديمة لقبائل العرب، وخصوصًا عندما ظهرت فتنة التعالي بين العرب في دولة بني أمية، ولم تقم هذه الدولة ببتر هذه الفتنة في وقتها، بل قاموا وخُلفاؤهم بإشعالها أكثر وأكثر؛ حيث ظنوا إن الناس ستنشغل عنهم بهذه الفتنة، ولكن تسببت هذه الفتنة بذهاب دولة بني أمية، بل تسببت بذهاب سلطة العرب أنفسهم، ثم لاحقًا بذهاب سلطة المسلمين كما سنشرح لاحقًا. وهذه الفتنة هي فتنة اليمانية والحجازية: فقد تفاخر الحجازيون (بني عدنان) على أهل اليمن أنهم (بني عدنان) هم أفضل العرب وأشرفهم إلخ، ولكن طبيعة الرجال الأحرار أنهم لا يرضون أن يتفاخر عليهم أحد، وهنا بدأت الفتنة اللعينة والتي كانت أقوى بكثير من قدرة الحكماء على لملمتها.

وفي خضم هذه الفتنة، ظهر اسم قحطان كـ أَبٍ لجميع العرب اليمانيين (العرب العاربة)، فأصبحت النظرة أن العرب هم إما بنو قحطان أو بنو عدنان، ولكن إذا نظرنا جيدًا فلن نجد أي مصدر موثوق للمعلومة أن عرب اليمن هم من أَبٍ واحد اسمه قحطان، وإنما انتشر هذا الاسم كأَبٍ للعرب في أواخر عهد بني أمية.

بل إن هناك تحليل أن الطريقة التي استخدمها المؤرخون العرب القدامى في تنسيب قبائل العرب هي نفسها الطريقة التي استخدمتها اليهود في كتبهم لتنسيب القبائل والدول المحيطة بهم، وأن قحطان قد تم اختيارها كترجمة عربية لـ "يقطان بن عابر" الموجود في كتب اليهود أنه أَبٌ لقبائل سبأ (المرجع: جواد العلي وغيره).

وعند النظر في أي نص موثوق أثناء الإسلام يَذكر "قحطان" فإن المؤلف لم يجد إلا نصين:

- قال الرسول عليه السلام: "لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه"، رواه البخاري.
- وهناك رواية أخرى للبخاري أن معاوية غضب من قول لعبد الله بن عمرو بن العاص يَذكر فيه أنه سيكون ملك من قحطان.

وقد وجد المؤلف أشعارًا منسوبة لحسان بن ثابت تذكر قحطان وهود، ولكنها أشعارًا ليست مُحَقَّقَة، ولا يظهر عليها أنها من الشعر الجاهلي، وإنما غلبة الظن أنها منحولة.

وفي النصين السابقين توجد ملاحظة:

عندما نَنْسِبُ شخصًا إلى مكان نقول: زيد من فلسطين، عمار من مكة، إلخ.
وعندما ننسب شخصًا إلى قبيلة نقول: عمرو من قريش، سعد من الخزرج، إلخ.
ولكن عندما ننسب شخصًا إلى أحد الأجداد فإننا نضيف كلمة "بني" فنقول: حمزة من بني هاشم، هارون من بني إسرائيل، الرسول عليه السلام من بني النضر بن كنانة، ولا نقول إن الرسول عليه السلام من "النضر بن كنانة".

وفي النصين السابقين: رجل من قحطان وملك من قحطان، وإذا اعتمدنا على الملاحظة السابقة فإن قحطان هو إما اسم قبيلة أو اسم مكان، ولكن لا يوجد أي قبيلة في عهد الرسول اسمها قحطان، ولهذا السبب فإن غلبة تخمين المؤلف أن قحطان هو اسم مكان.

وهناك قرينة على ذلك، فقد اكتشفت وثيقة في اليمن تعود إلى القرن الرابع الميلادي مكتوبة بخط المسند (أحد الخطوط اليمنية القديمة) تقول إنه تمت محاربة "بعل ربعت ذ الثورم ملك كدت وقحطن"، أي محاربة ربيعة ذي الثور ملك كندة وقحطان (المرجع: جواد العلي وغيره).

وهذا يُساند الملاحظة السابقة أن قحطان (قحطن) هو اسم مكان وليس اسم أب، ومكان قحطان قريب من حدود مملكة كندة في نجد.

وهناك ملاحظة أخرى:

هناك فرضية منطقية أنه في كل قرن (100 سنة) يوجد حوالي خمسة إلى ستة أجيال، وبالطبع هناك حالات تكون أكثر من ستة، وحالات أخرى أقل من خمسة، ولكن المعدل العام في فترة طويلة (عدة قرون) تكون بين خمسة وستة أجيال، وهذا يُمكن التأكد منه من خلال النظر إلى شجرة العائلات في عدة قرون من الزمن.

ويمكن تأكيد الفرضية السابقة من خلال مثالين:

فالفراعنة كانوا مهتمين بالمحافظة على أسماء ملوكهم السابقين، ولهذا السبب فنحن نعلم الكثير عن تاريخهم، وقد بدأ التاريخ المُسَجَّل للفراعنة في عهد الأسرة الأولى في حوالي 3200 قبل الميلاد، واستمر إلى كيليوبترا في عام 30 قبل الميلاد، ومن أول الأسرة حتى آخرها يوجد 170 فرعونًا خلال 3170 سنة، والمعدل العام لما سبق هو 5.36 فرعونًا كل مئة سنة، وهذا قريب من الفرضية السابقة.

وكذلك فإن أقدم عائلة حاكمة حتى اللحظة هي العائلة الإمبراطورية اليابانية، والتي بدأ تاريخها في 660 قبل الميلاد، والإمبراطور الحالي هو الإمبراطور الـ 125، وعمر هذه العائلة هو 2676 سنة، ومعدل الأجيال فيها هو 4.67 إمبراطورًا كل مئة سنة، وهذا كذلك قريب من الفرضية السابقة.

الآن .... النَّسَبُ الذي يضعه النسابون القدماء لـ إمرئ القيس (الشاعر المشهور والذي مات في 565 ميلادية) وحتى قحطان هو 21 أبًا، وهذا العدد قريب لمعظم أنساب القبائل العربية الجاهلية، أي أن أنساب العرب في وقت الإسلام وحتى قحطان يتضمن حوالي 21 أبًا حسب ادعاء المؤرخين العرب القدامى (والذين كتبوا في هذا الموضوع بعد عشرات السنين من ظهور الإسلام).

وإذا اخذنا الفرضية السابقة وقلنا إنه في كل مئة سنة يوجد خمسة أجيال، فإن الزمن بين إمرئ القيس وبين قحطان هو أقل من 450 سنة، أي أن قحطان (إذا ثبت وجوده) قد وُلد في حوالي الـ 100 ميلادية.

ولكن ما سبق (ضمن وجهة نظر المؤلف) غير منطقي؛ فأن يكون غالبية العرب في عهد الإسلام هو من أبٍ واحد عاش قبلهم قبل 450 سنة، هو أمر غير مقبول، خصوصًا أنه لا يوجد ذكر لأي كوارث طبيعية يمكن أن تُسبب تقلصًا كبيرًا في عدد السكان في تلك المنطقة.

وهذا ما يزيد في التخمين أن "قحطان" هو أب قد اخترعته النسابة القدماء (في عهد بني أمية وبعدهم) كي ينسبون العرب اليمانية إليه، وقد أَخَذَ هذا الاسم زخمه في خضم الفتنة التي حدثت للعرب في عهد بني أمية بين اليمانية والحجازية، ثم بين الجنوبيين والشماليين، ثم امتدت حتى وقت قريب جدًّا في فلسطين (مثلًا) بين اليمانية والقيسية.

النقطة الفاصلة أن المصادر الموثوقة المتعلقة في أنساب العرب الجاهليين هي شحيحة جدًّا وأن الموضوع برمته بحاجة إلى دراسة منهجية جديدة.

وهذا يرجعنا إلى الموضوع الأساسي:

الجزيرة العربية هي في منطقة وسط في العالم القديم وانتقلت إليها الكثير من الهجرات، ومن بينها هجرة إسماعيل عليه السلام إلى مكة، وأن العرب الأقحاح (أي العرب قبل الإسلام) هم ذرية مجموعات مختلفة من الهجرات من أماكن مختلفة إلى الجزيرة العربية.

خامسًا - نقمة التعالي:

لقد ذكرنا هذا الموضوع بتفصيل في كتاب سابق ("العبرة الكبرى") وسنضعه هنا باختصار لعلاقته بهذا الفصل:

لنفترض أن هناك شعبًا "أ" قد انتصر، وبدأ بالتفاخر والتعالي على الشعوب الأخرى. والتعالي هو أن تنظر في وجدانك أنك أنت وعائلتك وقبيلتك هم أعلى وأشرف وأشجع وأذكى من الآخرين، وأنه لهذه الصفات يَحِقُّ لكم ما لا يَحِقُّ للآخرين.

الآن ... في اللحظة التي يبدأ الشعب "أ" التفاخر والتعالي على الآخرين، فإن ذلك سيجعل الشعوب الأخرى يَتَّحدون في بغضهم لـ "أ"؛ إذ لا يوجد شعب حر يرضى أن يتفاخر وأن يتعالى عليه أحد، وعندما تتحد الشعوب في بغض شعب، فإن ذلك الشعب قد بدأ طريق السقوط.

على أية حال، فإن إشارات السقوط لهذا الشعب ("أ") لا تظهر أولًا من الخارج، وإنما تظهر إشاراتها من الداخل؛ إذ إن التعالي نفسه إن بدأ فإنه لا يتوقف، وإنما يتسرب نحو الداخل:

ففي اللحظة التي يبدأ "أ" التفاخر والتعالي على الآخرين فإن القبائل داخل "أ" ستبدأ التفاخر والتعالي على بعضهم البعض.

ولكن التعالي لا يتوقف هنا وإنما يتسرب إلى داخل القبيلة نفسها، وستبدأ أفخاذ القبيلة بالتفاخر والتعالي على بعضهم البعض.

ولكن التعالي كذلك لا يتوقف هنا وإنما سيتسرب إلى داخل الفخذ نفسه، وستبدأ العائلات بالتفاخر والتعالي على بعضهم البعض.

وكذلك التعالي لا يتوقف على حدود العائلات وإنما سيتسرب إلى داخل العائلة نفسها، وسيبدأ أفراد العائلة بالتفاخر والتعالي على بعضهم البعض.

وهذه هي لعنة التعالي على أية أمة أو شعب.

ولقد تفاخرت العرب على غير العرب، ولكن هذا التفاخر لم يتوقف عند هذا الحد، وإنما تسرب هذا التعالي إلى داخل البناء العربي نفسه، وبدأت لعنة الفتنة تنهش في هذا البناء ومنذ بداية العهد الأموي (فتنة اليمانيين والحجازيين، ثم فتنة الشماليين والجنوبيين، ثم فتنة اليمانية والقيسية، إلخ)، وامتدت هذه الفتنة إلى وقت قريب جدًّا.

الآن ... الدولة (أي دولة) تستمر في بقائها لسببين رئيسيين اثنين:

1- اتحاد الأُمَّة نَفسها، ووعي أفرادها، وعزيمتهم.
2- قوة وسلطة العاصمة.

ولكن إذا انتشر التعالي في الدولة فإن السبب الأول سيتلاشى في وقت قصير جدًّا (أقل من مئة سنة)، وتبقى الدولة مستمرة لوجود السبب الثاني، ولكن عندما تضعف قوة وسلطة العاصمة فإن الدولة نفسها تتشرذم كزجاج قد وقع.

وهذا الذي حدث للدولة الإسلامية، فقد تشققت الأمة الإسلامية ومنذ أواخر العهد الأموي، والسبب الرئيسي في ذلك هو لعنة التعالي، وقد بقيت الدولة مستمرة منيعة وثابتة بقوة العاصمة حتى وفاة الواثق سنة 232 هجرية، وبعده ضعفت العاصمة وتشققت الدولة نفسها إلى دويلات لا عَدَدَ لها.

وهذه هي النقطة هنا .... التعالي نقمة لأي أمة، وبسبب الفقر والضغط والقهر والظلم فقد خبت هذه الفتنة واضمحلت وخرجت (على الأقل) من سُلَّمِ الأولويات.

وهنا دعوتي لنسابي الجينات:

علم الجينات هو علم ممتع، وهو يُدَلِّل أننا (نحن البشر) نوع واحد، وقصة بقاءٍ واحدة، وقصة نجاحٍ واحدة،، وأمَّا إذا اسْتُخدمَ علم الجينات من أجل التعالي والتفاخر والتنقيص، فإن التعالي فتنة، والتعالي نقمة، والتعالي لعنة، وهي الآن نائمة .... فَلا توقظوها.